المحاضرة السادسة في مقياس السيمياء لطلبة الثانية ماستر تخصص لسانيات عامة:

ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي

لقد تيلور علم السيمياء على يد علماء الأصول والتفسير والمنطق واللغة والبلاغة، وكان الباعث والموجه للدرس السيميائي هو القرآن الكريم؛ إذ منذ نزوله كان التأمل في العلامة، ابتغاء اكتشاف بنيتها الدلالية؛ حيث نجد أن الأسس النظرية التي انبنى عليها هذا العلم (علم الدلالة القديم) قواعده نشأت في رحاب الدرس الفقهي، الذي يتوخى فهم القرآن الكريم، واستنباط أحكامه، ومعرفة سر إعجازه، فكان ذلك حافزا على البحث في بنائية وبلاغية وإبلاغية القرآن الكريم، ومدارسة لغته ، باعتبارها علامة دالة؛ ذلك أن اللغة ضمن منظورها السيميوطيقي لا تعدو أن تكون نظاما من العلامات الدالة ، وهذا ما حفّز الباحثين تفطنهم إلى هذا التوجه القرآني الصريح، إلى النظر في الكون، باعتباره علامة دالة على وجود وقدرة الخالق، والتدبر والتفكير فيه ، والاهتداء من خلال ذلك إلى الحق ، وهي نظرة يؤكد عليها القرآن الكريم ؛حيث يقول **عزَّ وجل (وعلامات وبالنجم هم يهتدون)** النحل آ16.

ففي هذا التوجه كان التعامل مع العلامة ،قصد فهم دلالته ،والاستدلال بحاضرها على غائبها ،يقول "عبد الجبار" :(إن من حق الأسماء أن يُعلم معناها في الشاهد ثم يُبنى عليه الغائب)، وقد أشار إلى هذا المعنى كذلك " الراغب الأصفهاني؛ وذلك حينما تحدث عن الفقه ،فيقول :(إن الفقه هو معرفة علم غائب بعلم شاهد).

إن تشبع علماء المسلمين بالثقافة الدينية، والسير على هديها، ووفق توجيهات أهم نصوصها (القرآن الكريم) الذي يُلح على ضرورة قراءة الوجود الخارجي وتأمله ،وإعمال العقل فيه ،يقول **تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) الرعد آ04** .إن هذا التشبع جعل الإطار الذي دارت فيه أبحاثهم الدلالية لا يكاد يخرج عند اعتبار الكون دالا على خالقه، وبهذا فإن التعامل مع العلامة في تراثنا كان من أجل تفسير دلالاتها الكونية والعقيدية، واعتبار حاضرها بديلا لغائبها ،ينوب عنه ويدل عليه ؛أي أن العلامة تدل على حقيقة حسية حاضرة تحيل على علامة دالة على حقيقة مجردة غائبة.

ماهية العلامة :

إن لفظة السيمياء حملت دلالة واحدة سواء في المعاجم العربية ،أو في القرآن الكريم ، أو الشعر العربي، وهي العلامة ،تقول العرب: (الخيل المسومة، أي التي لها السيما والسومة، وهي العلامة ، والسِّيماء والسِّيمياء: المقصودة بها العلامة ، أو الرمز الدال على مقصود، كما في قوله تعالى **(سيماهُمْ في وجوههم من أثر السجود) الفتح آ 29** .

وبالعودة إلى المعاجم العربية نجد معجم "لسان العرب" يقول: (السُّومة والسِّيمة والسِّيماء والسيمياء :العلامة ،وسوَّم الفرس :جعل عليه السِّمة ،وقوله عزّ والله **(حِجارة من طِين مُسَوَّمَة عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفين**)..... وقال ابن الأعرابي :السِّيَمُ العلامات على صوف الغنم....)

وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في مواضع عدة، نذكر منها:

- **قول الله عز وجل (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) (البقرة آ273)**

- **وقوله تعالى (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) (الأعراف آ46)**
- **وقوله سبحانه وتعالى (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) (الرحمان آ41)**
- **وقوله عزّ وجل (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) (الأعراف 48)**

وقد وردت كلمة السيمياء في الشعر العربي كذلك، نذكر الآتي :

غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيماء لا تُشقُّ على البصر

أي يفرح به من ينظر إليه.

فالملاحظ مما سبق أن كلمة السيمياء في القرآن الكريم والمعاجم العربية والشعر العربي لها معنى وهو العلامة.

أما بالعودة إلى مصطلح السيمياء كعلم عند العرب قديما ،فقد تعددت استعمالاته؛ إذا ذكر "ابن سينا" علم السيمياء في مخطوطة له (كتاب الدر النظيم في أحوال علوم التعليم).

وهناك عدد من العلماء أدخلوا تحت علم السيمياء علوم عدة كما فعل "ابن خلدون" في مقدمته ،حين قدَّم فصلا كاملا عنوانه (علم أسرار الحروف) جاعلا بذلك علم أسرار الحروف مرادفا لعلم السيمياء، كما فهمه العديد من القدامى العرب.

لقد اهتم الدارسون العرب القدامى بتعريف العلامة؛ إذ يتقارب مفهومها عندهم بالسمة والأمارة والأثر والدليل، فكل ذلك يتعلق بالدلالة ،وهي في اعتقادهم (كون الشيء بحالة

يلزم العلم بها العلم بشيء آخر)

مفهوم العلامة يُقابل مفهوم (الدلالة) في التراث :

لقد كانت (الدلالة) ،وركناها (الدال والمدلول)، والعلاقة بينهما، من أهم القضايا التي شغلت حيزا كبيرا من اهتمام علماء المسلمين منذ وقت مبكر، ومن ذلك مثلا ما عرضه "التهانوي" حول مفهوم هذا المصطلح (الدلالة)، فقال (الدلالة بالفتح هي كون الشيء بحالة يلزم العلم بها العلم بشيء آخر... والشيء الأول يسمى دالا، والشيء الآخر يُسمى مدلولا ، والمطلوب بالشيئين ما يعم اللفظ وغيره) .

السيمياء عند العلماء العرب: ولنا في هذا أن ننظر فيما قدَّمه مجموعة من الدارسين، ومن بينهم:

-**ابن سينا:** من الدارسين الذين اهتموا بالعلامة وطبيعتها، والذي في حديثه عن طبيعة العلامة يقول: (إن الإنسان قد أُتي قوة حسية، ترتسم فيها صور الأمور الخارجية ....فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غابت عن الحس... ومعنى دلالة اللفظ هو أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى ، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه)، فبهذا يكون "ابن سينا" قد قال إن العلامة ثنائية المبنى، تتألف من مسموع ومعنى (مفهوم)، وبهذا التصور يُلغي من مفهوم العلامة المرجع، الذي يُحيل إليه العلامة .

وهذا ما نجده عند "دي سوسير"؛ إذ تتألف العلامة عنده من صورة سمعية (دال) وتصور (مدلول)، بمعنى أن نظرة "دي سوسير" لا تختلف كثيرا عن تصور "ابن سينا"، فكلاهما يعتبر العلامة اللغوية وحدة نفسية مزدوجة، تتركب من :

1 -مسموع أو صورة سمعية .
2 - مفهوم أو معنى أو تصور.

إضافة إلى هذا الاتفاق حول تركيبتها، فإنهما يستعملان المصطلحات نفسها تقريبا:

ابن سينا	**دي سوسير**
أ - مسموع اسم.	أ- صورة سمعية
ب - معنى /مفهوم	ب- تصور /مفهوم (مدلول)

-أبو حامد الغزالي: والذي يرى أن الأشياء في الوجود لها أربع مراتب؛ إذ يقول (إن للشيء وجود في الأعيان ، ثم في الأذهان ،ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان)

فالعلامة في نظر الغزالي تتألف من أربعة أطراف أساسية ، وهي :

- الموجود في الأعيان. -الموجود في الأذهان.
- -الموجود في الألفاظ. -الموجود في الكتابة.

فالموجود في الأعيان ، والموجود في الأذهان، والموجود في الألفاظ المنطوقة باللسان أو الكتابة، هو ما يُقابل عند بيرس بالموضوع و المؤول والماثول.

والملفت للانتباه أن نجد هذه التركيبات نفسها، وإن كانت المصطلحات تختلف، هي مركز الاستقطاب في النظرية الدلالية، التي قدّمها الانجليزيان (أوجدن وريتشاردز) ،في كتابهما (معنى المعنى)، الصادر عام 1923 ،فيه يتساءلان عن ماهية العلامة أو الدلالة، من حيث هي :عمل ناتج عن اتحاد المكونات الآتية:

1- **الرمز**: وهو الدال ، ويأتي كلمة مكتوبة أو منطوقة، تتألف من مجموعة من الوحدات صوتية، وهو يقابل اللفظ في التراث، ويقابل الدال عند دي سوسير.
2- **الفكرة:** (المفهوم) وهي الصورة الذهنية، التي تتراءى من خلال الدال، والفكرة تقابل المعنى أو المدلول عند دي سوسير.
3-**المرجع**: وهو الواقع الخارجي الموجود في الأعيان، وهذا لا مقابل له عند دي سوسير.

-فخر الدين الرازي:نظرته للسيمياء ارتبطت بعلاقة الدال بالمدلول، وحصر أنواع العلاقات بين الدال والمدلول في اللغة؛ حيث قال: (الألفاظ إما أن تدل على المعاني بذواتها، أو على وضع الله إياها ،أو بوضع الناس، أو يكون الأول بوضع الله ،والباقي بوضع الناس)

وقد بيّن الرازي الحكمة من وضع الألفاظ للمعاني؛ وذلك لأن (الإنسان خُلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته، فاحتاج إلى أن يُعرِّف غيَّره ما في ضميره... ولا بد لذلك التعريف من طرق، والطرق كثيرة، مثل :الكتابة والإشارة والتصفيق باليد، والحركة بسائر الأعضاء، إلا أن أسهلها وأحسنها

هو تعريف ما في القلوب والضمائر بهذه الألفاظ)، فالملاحظ هنا أن الرازي يرى أن الألفاظ هي الوسيلة الأسهل والأحسن في التواصل، وهذا ما تبناه أصحاب المنهج السيميائي اليوم.

وقد استبعد الرازي المرجع من مفهوم العلامة، وهذا ما يوافق ما ذهب إليه "دي سوسير" ؛حيث يقول الرازي (للألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الأعيان؛ ولهذا السبب يُقال: الألفاظ تدل على المعاني ؛لأن المعاني هي التي عناها العاني ،وهي أمور ذهنية

-عبد القاهر الجرجاني: والذي أشار إلى أن الكلام على ضربين (ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده؛ وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو، فقلت: عمرو منطلق... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل) ،وهنا يكون الجرجاني قد تحدث عن التحول الدلالي، وإن لم يُشر إليه صراحة، وهذا ما تحدث عنه المحدثون تحت مصطلح معنى المعنى، كما عند "أوجدن وريتشاردز".

-الجاحظ: والذي كانت له دراية بجميع أصناف العلامات اللغوية وغير اللغوية؛ حيث يقول (جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة، والنِصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقال تلك الأصناف...) فالجاحظ هنا بيَّن أن الدلالة تتم باللفظ أو بغير اللفظ، وكل هذه المسائل اعتنى بها المحدثون وطوَّروها في مختلف السيميائيات المعاصرة.

فكلام الجاحظ لا يبتعد عما تقوم عليه السيميائية الحديثة، من إشارة وقرينة وأيقونة، سواء كان ذلك بلفظها أو معناها.

-العلامة (الدلالة) بين القصدية والتأويلية :

لقد انقسم العلماء العرب القدامى بخصوص هذه القصدية إلى قسمين، فمنهم من يقول بالقصدية، ويرى ضرورة توفرها في الدلالة، ومنهم من لا يهتم بها، بل ويركز على قابليتها للتأويل.

وقد مثّل للاتجاه الأول "القاضي عبد الجبار"، الذي يُركز كثيرا على اعتبار (قصد المتكلم) في عملية التبليغ؛ ذلك لأن الكلام في رأيه (قد يحصل من غير قصد فلا يدل، ومع القصد فيدل ويفيد، فكما أن المواضعة لا بد منها فكذلك المقاصد، التي بها يصير الكلام مطابقا للمواضعة) فالقاضي هنا يركز على قصد المتكلم، ولا يرى بدونه للكلام أي دلالة، وبالتالي يكون القصد في نظره شرطا أساسيا لوقوع الدلالة.

أما الفريق الثاني، والذي لا يعتبر توافر القصدية ضرورية فينتزعه "أبو هلال العسكري" (ت 400ه)، والذي نجده في سياق حديثه العلامة أو الدلالة، يقول (...ويمكن أن يستدل بها ،سواء أقصد فاعلها ذلك أم لم يقصد، والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك... وآثار اللص تدل وهو لم يقصد ذلك)

يلاحظ هنا أن التقاطع الحاصل بين كل من القاضي عبد الجبار وأبي هلال العسكري، ومن يتبعهما يتجسد مع قضية تعد الآن موضوع جدل كبير بين أقطاب الفكر السيميائي المعاصر؛ حيث إن هناك

اتجاها يؤكد على الطبيعة التواصلية للعلامة، باعتبارها تتكون من (دال–مدلول -قصد) ، والمسمى باتجاه (سيميولوجيا التواصل)، في حين يركز الاتجاه الآخر على الطبيعة التأويلية للعلامة، وهذا من حيث قابليتها للتأويل من جانب المتلقي ،ويسمى بسيميولوجيا الدلالة.

يلاحظ مما سبق أن دراسات نظام العلامات في التراث العربي، دراسة قديمة قدم الدرس اللساني، إلا أن الأفكار والتأملات السيميائية التي وصلت إلينا ظلت في إطار التجربة الذاتية، ولم تتجسد في إطار التجربة العلمية الموضوعية .